كلمة حضرة العضو المحترم الأستاذ عباس محمود العقاد

فى استقبال حضرة العضو المحترم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

كان من حظى أن وكل إلى إلقاء هذه الكلمة فى استقبال صديقى القديم ، وزميلى الجديد فى المجمع : الأديب الشاعر الناثر الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

ولكن ليس من حقى أن أسميها كلمة تقديم ، فإن المازنى مقدم متقدم ، له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه ، رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد .

وليس من حقى أن أسميها كلمة تعريف ، فإننى لو ذهبت أعرف الناس بالمازنى ، لم آمن أن أسمع من العالم العربى كله ، كلمة يستعيرها من الفرزدق ، ليقول لى : العرب تعرف من عرفت . فلا حاجة بالمازنى إلى تعريف .

لكننى أستطيع أن أقول عن المازنى شيئاً جديداً فيما يتصل بى ، وشيئاً طريفاً فيما يتصل بالمجمع ، لأن صلة المازنى بالمجمع صلة سابقة من جهة أعماله وجهوده ، وإن طرأت عليها الطرافة من جهة انتظامه بين أعضائه ، فى العهد الأخير .

• • •

عرفت المازنى منذ نيف وثلاثين سنة ، أى منذ جيل كامل فى عصر النهضة الحديثة ، وقعت فيه حربان عالميتان ، وشجرت فيه حروب لاعداد لها فى ميادين الأدب أوالثقافة أو السياسة ، ولم نكن فى تلك الميادين على انتماء دائم إلى صف واحد ، ولكننى راض ومغتبط بأن أقول : إنه كان لسماحته وحسن تقدير الفوارق بين اختلاف الآراء ،واختلاف العقول والطباع ، فضل مشكور فى بقاءهذه الصداقة التى أعزها وأعتز بها ، ويسرنى أن تصبح من الصداقات النادرة فى تاريخ الآداب العربية الحديث .

• • •

كان المازنى طالباً بمدرسة المعلمين العليا، يكتب فى صحيفة الدستور التى كنت أشترك فى تحريرها ،ثم عرفتهفيابصح أن نسميه بمدرسة « البيان » ... وهو اسم المجلة التى كان يصدرها الأديب البليغ الأستاذ « عبد الرحمن البرقوقى » رحمه الله ، وكان يكتب فيها نخبة من ناشئة تلك الفترة ، شيوخ هذا الجيل : أمثال محمد السباعى ، ومحمد حسين هيكل ، وعبدالرحمن شكرى . وكنا نزاملهم فى كتابة فصول المجلة. فكنا نتلاقى على مائدة الأدب والمطالعة : نقرأ ابن الرومى ونعارضه،ونقرأ الجاحظ والشريف الرضى ونختلف فيهما ، ونقرأ وليام هازليت ناقد الإنجليز الأكبر ونرفعه مكاناً علياً فوق زمرة النقاد العالميين ، ولا نسمع بشاعر أو كاتب من أعلام الأدب والفكر فى اللغات الأجنبية إلا ذهبنا نلاحقه ونطارده فى كل مايصل إلينا من كتبه . ثم نقتسم نصيبنا منه بالمذاكرة والمشاورة ، كما نقتسمه بالمنازعة والمشاجرة فى أحايين .

ولست أنوى أن أفصل تاريخ هذه الشركة الأدبية ،فإن تاريخها قد أصبح فى ذمة الصحف والأوراق ، وفى ذمة الذين اطلعوا على تلك الصحف والأوراق .

ولكننى أذكر بعد ذلك أننى عرفت المازنى معلماً كما عرفته قارئاً وكاتباً وطالباً ، وزاملته فى التعليم كما زاملته فى التلمذة على فحول الأدباء ... ومن إخواننا فى المجمع من عرفوه كما عرفته فى تلك الأيام ، فلعلهم يذكرون شيئاً مما أذكره فى هذا السياق ، ويستطيعون أن يزيدوا عليه ويتمموه بما علموه .

• • •

إن الطلاب — كما تعلمون حضراتكم —

يمتحنون أساتذتهم قبل أن يعلمهم الأساتذة وقبل أن يمتحنوهم من باب أولى .

ولعلى لا أبخس الأساتذة حقهم إذا قلت: إن هؤلاء الطلاب الشياطين أخبر بفنون هذا الامتحان من كل أستاذ خبير ، لأنهم يمتحنون الأستاذ فى كل شىء ، ولايقصرون امتحانهم على مادة العلم أو برامج الدراسة : يمتحنونهم فى مقدرة العقل ، وفى مقدرة الخلق ، وفى مقدرة التصرف والتنظيم .

وقد أمتحن أخونا المازنى فى كل مدرسة تولى التعليم فيها ، فخرج من كل امتحان ناجحاً موفقاً ، أتم نجاح وتوفيق .

والمازنى كما ترونه اليوم ، هو المازنى كما رأيناه قبل نيف وثلاثين سنة : عيناً بعين ، وقداً بقد ، وإن لم يكن سناً بسن على معنى الحقبة من الدهر . فلم يختلف فيه إلا ابيضاض الشعر ، وشىء من التجعيد فى موضع النضارة والاستواء .

فلما فوجئ التلاميذ برؤيته ، أعدوا له ورقة الامتحان من الوهلة الأولى ، وتساءلوا: ماذا عسى أن يصنع هذا الأستاذ النحيل القليل فى هذا الامتحان العسير الجليل ؟ واختلسوا من حيث لا أدرى قليلا من حمض لعله حمض « الهيدروكلوريك » Hydrochloric Acid وهو حمض يكظم الأنفاس ويطلق السعال والعطاس . فوزعوه على الدويات فى جوانب الحجرة ليضيع الدم جُباراً بين المتهمين فيه.

ودخل أخونا المازنى الفصل كما نسميه . فشم رائحة الفأر كما يقول الإنجليز فى أمثالهم — Smelt a rat — وعرف ماينتظره التلاميذ وفعل مالم ينتظروه .

عرف أنهم ينتظرون أن تضيع الحصة فى السؤال والجواب ، وفى الاتهام والإحالة ، وفى السخرية التى يخرجون منها بصفقة الرابح ويخرج منها الأستاذ بصفقة المغبون .

ولكنه لم يصنع شيئاً من ذلك ، ولم يخطر له أن يصنعه .

لم يسأل ولم يتهم ، ولم يبد عليه أنه توجس أمراً أو أحس مايستحق السؤال ، ولكنه عمد إلى نوافذ الحجرة المفتوحة فأغلقها ، وقصد إلى مكانه فاستوى عليه ، ومضى فى درسه كأنه فى حديقة من حدائق الأزهـــار والرياحين .

وتتابع السعال ، وتلاحق العطاس ، واشتد التأفف ، ونفد صبر التلاميذ قبل أن ينفد صبر الأستاذ ، واستغاثوا به متوسلين أن يفتح النوافذ ، أو يفتح نافذة واحدة ... فكان يجيبهم بأنه البرد ... سعال البرد أو عطاس البرد ... وقد يزيده تيار الهواء . فمن الخير أن تحتملوه ولاتتعرضوا معه للهواء .

ولم يمتحن معدن بحمض من الأحماض ، كما امتحن معدن المازنى بذلك الحمض الكريه. فعلم الممتحنون أنه امتحان كاف ، فلا حاجة بهم بعده إلى تكراره ، ولو احتاج الامتحان إلى بقية باقية لما كرروه . وقد ظفر المازنى

بعد المعركة باسم عسكرى أضفاه عليه تلاميذه وجنوده : وهو اسم « تيمورلنك » ... مستمدين التسمية من مادة التاريخ التى كان يدرسها ، ومن ذلك الجبروت الذى خبروه .

ومن حق المازنى أن أقول : إن نجاحه فى تجاربه قد أفادنى فى زمالته . فكنا نمشى معا ، ونهبط الدرج معا ، ولا أكتمكم أنه منظر يغرى الكبار المتوقرين بالابتسام ، فضلا عن الصغار اللاعبين ، ولكنهم كانوا يغضون عنا ، ولايذكروننا بأسمائنا وإنما يتساءلون : هل جاء العشرة ؟ هل خرج العشرة ؟ فإن قيل لهم : نعم خرجوا ، قالوا : الحمد لله !

على أننى أظلم صديقى إذا عزوت مهابته فى التدريس إلى حضور ذهنه وحسن تصرفه وقدرته على نفسه دون غيرها من أدوات التعليم . فقد كان — كما عرفه زملاؤه وتلاميذه — معلما كامل الأداة ، وربما كان التمكن فى المادة والسرعة فى التحضير أكمل مافى هذه الأداة.

كان — كما قدمت — يعلم دروس التاريخ فى المدارس الثانوية ، وكان تعليمها بالعربية حديثاً ، وكتبها المقررة لاتغنى عن المراجعة والتلخيص من المصادر الكبرى ، وكان وقت المعلم مزدحماً بالحصص فى اليوم الواحد . فرأينا المازنى يجلس إلى مكتبه : أمامه المرجع الإنجليزى الضخم فى مجلد أو مجلدات ؛ وفى يده القلم ، وبين يديه ورق الآلة الناسخة التى تعرف بالرونيو . فينظر إلى المجلد ، ويترجم مايقرأه فيه ، ويلخصه لنفسه ، ويكتبه بالعربية الفصحى ، ويرسله إلى المطبعة فى وقت واحد فإذا هو بعد هنيهة مذكرات وافية موزعة على التلاميذ .

وأظن أن زميلنا الفاضل — الأستاذ فريد أبو حديد — يذكر هذا كما أذكره ، لأنه كان صاحب المكتب الذى يواجه المازنى ، وكنت صاحب المكتب الذى يليه .

* * *

وأحسب أننى قد استطردت الآن إلى الجانب الذى يتصل بالمجمع من أعمال عضوه الجديد . وهو جانب التمكن من اللغة فى الترجمة والتعبير .

ولست أغلو — ولا أحجم عن التحدى — إذا قلت : إننى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات النظم والنثر — أديباً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، ويملك هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً ، ويجيد منها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة ، وقد يغنى التمثيل هنا عن الإفاضة فى الدليل .

فهذه أمثلة لذلك كله من ترجمته لبعض رباعيات الخيام ، وهى مما ترجمه فى سويعات معدودات . ولايخفى أن التمكن من اللغة عمل لايدل عليه شىء كما تدل عليه الترجمة ، لأن المنشئ مطلق فى تفكيره وتعبيره . أما المترجم فله قيود من كلام المنشئ الأصيل ، فاولا قدرة عنده على التصرف بالمعانى والكلمات ، لما استطاع التوفيق بين كلامه وفكر غيره فى هذه القيود . وهذا الذى نراه فى ترجمة المازنى للخيام .

يقول الخيام أو يقول المازنى :

هذه رقعة شطرنج الفضاء
ولهـا لونان : صبح ومساء
لنقل الخطو بهـا كيف نشاء
ثم تطوينا صناديق الفناء

* * *

ويقول الخيام أو يقول المازنى :

أبداً يسطر ماشاء القـلم
ثم يمضى — نافذ الحكم أصم
ليس يمحو نصف سطر ورع
لا ولا يغسله دمـع سجم

* * *

ويقول الخيام أو يقول المازنى :

كرة تذهب فى كل اتجـاه
مالها إلا الذى شـاء الرماه
إن من ألقاك فى ميـدانه
هو يدرى. هو يدرى. لاسواه

* * *

ويقول الخيام أو يقول المازنى :

كم بذرنا حكمة العقل سـواء
وتعهـدت يكنّى النمـاء
وتأمل : ها حصادى كله
جئتُ كالماء ، وأمضى كالهواء

* * *

ويقولان أصلا ونقلا :

خضت فى عهدى غمار الجدل
وسمعت الشيخ يتلوه الولى
غير أنى كنت ألفى أبـداً
مخرجى ، بعد عنائى ، مدخلى

* * *

ويقولان :

ها هنا حسبى من كل الطلاب
زق خمـر ، ورغيف وكتاب
وتغنين ، فترتد اليبـاب
مثل همى من فراديس وغاب

* * *

ويقولان :

هات لى الكأس فما يجدى الفطن
كيف يطوى تحت رجليه الزمن
قد مضى الأمس ، ولم يولد غد
فكفانا اليوم مادام حسن

* * *

وهذه أبيات من الشعر ، نظمت رباعيات وترجمت رباعيات ، وليس فى الترجمة فكرة مقحمة أو عبارة محشوة ، وليس فيها معنى ناقص أو فتور فى روح الشعر ومؤداه . بل تراجعها على الترجمة الإنجليزية فتكاد لاترى هنالك كلمة متأخرة عن موضعها ، إلا فيما يقضى به اختلاف اللغتين ... ولو أراد

فتزجير الد مترجمها إلى الإنجليزية ، أو أراد الخيام ناظمها بالفارسية ، أن يفرغاها فى قالب عربى ، لما استطاعا فى الطلاوة والسلاسة والدقة والنغمة الموسيقية ، أن يبلغا بها فوق مبلغ المازنى من الإجادة فى كل هذه الحسنات.

* * *

على أن التمكن من اللغة والتعبير ، غرض من الأغراض الكثيرة التى تناط خدمتها بالمجمع اللغوى ، وقد ناط المازنى نفسه بها زمناً طويلا قبل أن يتبوأ مكانه فى المجمع للمثابرة على خدمتها . وقد سبقت له فيها دراسات مستفيضة وكانت دراسته لها أوفر من كتابته فى موضوعاتها وكانت له فى كل منها مقاطع رأى ترتضيها الكثرة من المشتغلين بهذه الموضوعات .

كتب فى موضوع الحقيقة والمجاز ، فأتى برأى الفيلسوف « لوك » الذى يرى أن الألفاظ جميعاً مأخوذة من عالم الحس ثم يتفرع المجاز عليها . ثم أتى برد الفيلسوف كوزان على هذا الرأى وهو يقول : " سأورد لفظين أسألكم أن تردوهما إلى أصليهما الدالين على ماهو واقع تحت الحس أولهما « أنا » — هذه اللفظة فيما أعلم ليست قابلة أن ترد إلى أصل أو أن تحال إلى عناصر أولية ، وليست دالة على فكرة محسوسة . كذلك لفظ « يكون » أولى ذهنى محض ، ولا أعرف لغة يؤدى فيها لفظ « يكون » بكلمة تعبر عن لفظ محسوس . ومن أجل ذلك لا أرى من الصواب أن الرموز الدالة على ما يقع تحت الحس هى أصول اللغة " .

ثم توسع فى الاستشهاد برأى كوزان ، وهو لايمنع أن يكون كثير من المجاز مردوداً إلى المحسوسات ، وعقب على ذلك قائلا : " إن هناك نوعين من المجاز : لفظى وشعرى . فأما اللفظى فذلك الذى ينقل فيه اللفظ إلى أشباه ماوضع له ، كالإشراق مثلا يستعمل للشمس والنار والوجه والمعانى ، وأما الشعرى فنعنى به أن يعمد القائل مثلا إلى الشمس فيجعل لها أيديا يرمز بها للأشعة ، أو للسحب فيسميها جبالا أو يشبهها إذا أمطرت بالاناث فيقول مثلا استحلب الريح السحاب " .

* * *

وعرض الأستاذ المازنى غير مرة للبحث فى التجديد والتقليد ، فقال : « لاننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والعائدة ، وما للخبرة ببراعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل فى تربية الروح... على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مساغ للشك فى أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد ، فإن الفقير لايغنى بالاقتراض من الموسرين » .

ومن تفريقاته بين الفصاحة والبلاغة الشعرية أنه يوكل البلاغة الشعرية بما يصح أن يناجى به الإنسان نفسه ، وإن كتبه لغيره . ويوكل الفصاحة على العموم بما يجرى به التخاطب بين الناس . ثم يقول : « لعل هذا هو السبب فى أن الأمة الإنجليزية لم تنبغ فى شئ نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره إلى الإرادة والعاطفة ، وأن الأمة الفرنسية من أفصح

الأمم ... ذلك أن الشعر عبارة عن الإحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها، ويرمز له بما هو أقرب إلى الصورة التى هو بها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فإحساس كذلك ، ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلتى إليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها ، أو نشداناً لتحريكها وحفزها إلى العمل » .

* * *

ومن فصوله عن التقليد فى الشعر فصل يثبت أنه « ليس الأصل فى الشعر التقليد والحكاية والطبع على غرار من سبق . إذ لو كان ذلك كذلك لاستوجب أن يظهر الفحول فى آخر العصور ، ولما ظهر أحد منهم فى أولها ، ولكنك ترى الشعر فى جاهلية الأمم وبداوتها كالشعر فى حضارتها : لطف تخيل ودقة معنى » .

* * *

هذه المباحث والآراء وماشاكلها قدشغلت المازنى أكثر مماكتب فيها . وقد كتب فيها أكثر مما اشتغل به أناس من الأدباء ، وقد انتهى إلى أحكام تجمع الصواب إلى سعة الأفق وبعد الروية والأناة . فيصح أن يقال إن المازنى بعمله وعلمه عضو قديم فى مجمع اللغة وإنه بمراسم التعيين عضو فيه جديد .

* * *

ولست أحب أن أختم هذه الكلمة قبل أن أنصف المازنى حيث يحتاج إلى الإنصاف . وهو لايحتاج إلى الإنصاف إلا فى موضع واحد : وهو موضع الكلام عن نفسه .

فلم أر أحداً يجور على المازنى كما يجور المازنى على فضله وقدره . وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله والاستخفاف بجدواه . فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر غناء مايكتب وينظم وماعسى أن يكتب وينظم . وقد تغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد منها بما قاله فى تصغير فضله وقدره ، ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم ، وقبض الريح !

وقد غالطته أحياناً فقلت له : إن هذه البدعة منه ضرب من المكر الحسن الذى لايستغرب . كأنه أراد أن ينزل عن مكانه ليجلسه الناس عليه ، وأن يجحد حقه ليثبته له الناس .

ولو كان هذا قصده لكان فى كلامه ماهو أقوى جواب عليه ... وذلك حيث قال فى حصاد الهشيم : « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها . بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ماهو وراءها . لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لايدعان للعدل والإنصاف مجالا للعمل .. »

فالأرجح أنى غالطته حين استفززته بمثل تلك التهمة البريئة ، وأن حقيقة الأمر فى هذه الخصلة أن المازنى يستخف بعمله ، وبغير عمله أحياناً ، لأنه يستصغر حياة الإنسان فى جانب آماد الخلود ومصاير الأقدار ، ولأنه

ينظر إلى أعلا ولاينظر إلى أدنى ، فيقيس ماعمل بما أراد أن يعمل ، فإذا هو دون ماأراد وإن كان فوق ما أراده عاملون آخرون .

وقد هوّن الخطب على نفسه بسليقة فيه ، عهدتها منذ زمن بعيد ، وهى أنه استطاع أن يقسم « أنانيته » قسمين متلازمين . يسخط أحدهما فيتناوله الآخر بالعبث والتعزية ، ويشمخ الشامخ منهما فيغض منه المطمئن الوادع ، ولا يندر فى كتابته أن تقرأ لهدلائل هذه التثنية المباركة ، فيقول أحد المازنيين للآخر : « أهذا الذى ركبه الله لك يامازنى بين كتفيك رأس كرءوس الناس ؟ ... » أو يقول : « هب جيلنا كان آخر جيل . أفتظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ إذن لاتصوب نظرك يامازنى إلى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك إذ تطل من نافذتك ، ولاتبتسم إذ تجتلى مظاهرها كأنك تزدريها أو ترثى لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ماعرفت فإنها حافلة بالمتع والعجائب ، كهذه الكتب التى تعنى بها » .

وقد راقه هذا المعنى فى بعض شعبه فنظمه فى قصيدة من الشعر الجزل يقول منها :

إنى أرانى قد حُلْت وانتسختْ
مع الصبا سورة من السورِ
وصرت غيرى ، فليس يعرفنى
— إذا رآنى — صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره
كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا
فى العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازنى ثم أتى
من مازن غيره على الأثر

فقد اتسع إذن أفق الخلود والمثل الأعلى أمام صديقنا وزميلنا ، فأعد له مازنيين اثنين بدلا من مازنى واحد . وله ولا ريب أن يشغل هذا الأفق الرحيب بما يشاء من أقران وأنداد ، يستمدهم من ذات نفسه الفنية .

ولكننا لا نترك له أن يحكم عليه أو عليهما أو عليهم أجمعين ، فيستأثر فى ذلك بالقول الأخير . إلا أن يكون ذلك القول الأخير على وفاق ما قاله فيه قراؤه وعارفوه ، ويقوله كل منصف فى الحكم والتقدير .